

مسئولية المجتمع



والآباء مسئولون عن أبنائهم ، والأبناء صورة صادقة لآبائهم ومربيهم ، فإذا ما نشأوا نشأة صالحة سعد بهم مجتمعهم الأصغر وهو المنزل ، ومن ثم مجتمعهم الأكبر وهو المدينة ، والعكس على نقيض ذلك . والأساتذة مسئولون عن تلاميذهم في المدرسة فليس المهم حشو رؤوسهم بالدروس الطويلة العريضة ، وإنما عليهم أن يكرسوا جهودهم في صقل عقليتهم ، وتكوين شخصيتهم ، وتهذيب غرائزهم ، وشحذ هممهم ، وإعدادهم للمستقبل . ثم يأتي دور الشباب وهم العنصر الجوهرى في كيان المجتمع ونصف المسؤولية الملقاة على عاتقهم وقد يجدون من الصعب عليهم تحملها خصوصاً في طريق تحف به المصاعب والمتاعب والآلام ولكنهم متى أدركوا أن هذا الطريق الذى لا بد من اجتيازه هو طريق المجد الذى ينشدونه ، هانت عليهم كل التضحيات التى يبذلونها فى سبيله .

وبقى قادة الرأى ، وهم أولو النفوذ الدينى والفكرى والسياسى ، والمسئولية الملقاة على كاهلهم أخطر مما يتصور ، ذلك لأنهم بمثابة « مركز القيادة » لأنهم ؛ فإن أحسنوا التدبير وصلوا بها إلى الرقى والتقدم ، وإن أساموا التصرف قادوها إلى الانحطاط والتدهور ، وأهم ما يجب أن يتصفوا به « النزاهة » .

فأولو النفوذ الدينى أصحاب رسالة سامية دونها رسالة غيرهم والمسئولية التى هم مطالبون بها لا تقل أهمية عن أولى النفوذ السياسى . إذ لا فرق بينهم سوى أنهم رجال يغلب عليهم الطابع الروحى والسياسيون يغلب عليهم الطابع المادى . والمهمة الموكولة إلى أصحاب النفوذ الفكرى ليس لها مكان أو زمان وإنما تتلون وتتأثر بالظروف القائمة ، وقد يجدون أن من العسير عليهم أن يوفقوا بين رغباتهم ورغبات القراء ، لذلك نرى أن معظم القراء ينظرون إليهم نظرة يشوبها نوع من الريبة والشك ، وكثيراً ما توجد أسباب تخرج عن إرادة المفكر ولولاها لما توانا لحظة

لكل مجتمع محاسنه ومزاياه كما أن له مساوئه وسقطاته ، وترى هذه الطبائع والعادات المتباينة ممثلة أوضح التمثيل فى بيئته . وكامنة فى شخصية أفراد وأسرته ، وهؤلاء الأفراد يستطيعون أن يخلقوا لهم مجتمعاً إما أن يكون قوياً سعيداً ، وإما أن يكون ضعيفاً شقيماً ، وهذا بطبيعة الحال يتوقف على مقدار ما يبذلونه من التضحيات وما يستسيغونه من الصبر على تحمل المكاره ، ذلك أن المجتمع يتنازع العاملان أحدهما داخلى والآخر خارجى ولكل من هذين العاملين خطورتهما وأثرهما البعيد فى قسام الأمم أو انهيارها ، والعامل الداخلى مبعثه أفراد المجتمع أنفسهم ، وأسوأ ما فى هذا العامل الفوارق بين الطبقات ؛ ذلك أن المجتمع يتكون من طبقات ثلاث إحداها غنية وأخرى متوسطة الحال ، وثالثة فقيرة ، ولا نعى هنا بالفوارق من حيث الناحية المادية فهذه سنة الحياة . ولا اعتراض عليها ، ولكن بيت القصيد فى هذا القول الفوارق من ناحية الطبائع البشرية التى تترتب على وجود هذه الماديات فى حوزة بعض الناس والتى يستطيع كل إنسان تجنبها والقضاء عليها لأن مبعث هذه الطبائع المستهجنة الشعور « باللفظة الكذابة » ، ويخيل إلى أن أصحاب هذه اللفظة لم يدركوا بعد من أن جاءوا وإلى أين يذهبون وماذا عسى أن يكونوا فى عالم الجهول ، ولو أنهم أدركوا لما وجدوا محلاً للكبرياء حيث تفرض الحياة علينا إرادتها .

ولن يستفيد المجتمع من أفراد إلا إذا شعر كل واحد منهم بالمسئولية وأدى واجبه على الوجه الصحيح ، وليست هذه المسئولية وفقاً على أناس دون آخرين بل يشترك فيها جميع أفراد الشعب كبيرهم وصغيرهم .

فأصحاب السلطة مسئولون عن رغباتهم من حيث كفالة المعيشة والحريات والمساواة فى الحقوق والواجبات وصون الأمن واستثمار مرافق البلاد لخيرها وصالحتها ، ووضع حد للجشع والمطامع الشخصية ، والاستئناس بأولى الخبرة والمواهب من المواطنين وغيرهم .

في تحطيم القيود التي تشل عليه تعبيره ، وليس معنى هذا أنه لا يجوز للقارىء أن يطالب الكاتب بمعالجة نوع خاص من الموضوعات وأن يبدى فيها آراء صريحة بل له الحق في ذلك على أن يقدر الظروف والملاسات أولاً . ومن واجب الكاتب أن يجيب رغبات قرائه في حدود المعقول والمستطاع . وإجابة طلبات القراء تتوقف إلى حد بعيد على لباقة الكاتب وحسن تصرفه . ويجب أن يدرك أولو النفوذ الفكرى أن ما من نهضة قامت في أمة ما ، إلا وكان لهم السبق والفضل فيها ، وهذا يدلنا على فداحة الثمن الذى يبذلونه

وأولو النفوذ السياسى يدور فى فلكنهم أو هم يدورون فى فلك الطبقة الأرستقراطية الرأسمالية وهذه الطبقة يعز عليها أن تشارك مواطنيها آمالهم وآلامهم ، وقد يستعصى عليها الدفاع عن حقوقهم ، فهى صاحبة الشأن ولها الكلمة المسموعة ، ولها المقام المرموق ، ولكنها مع الأسف الشديد كثيراً ما تستغل مركزها الاجتماعى فى حدود مصالحها الخاصة .

وهذه الطبقة هى أقدر الطبقات على الإصلاح لو عملت له . والمرء حينئذ يضحي بالقليل من راحته ومن مصالحه الشخصية إفي سبيل بلاده وهى لا تكلفه شيئاً كثيراً يقدم أجل الخدمات لمجتمعه لأنه بهذا العمل العظيم يدفع عنه كثيراً من الآفات والويلات التى إذا حلت به تذوق مع غيره مرارتها ، والأفراد المستضعفون الذين يدافع عن حقوقهم ويصون لهم كرامتهم ويشعروهم بإنسانيتهم ، يؤلفون السواد الأعظم من مجتمعه وجلهم من الطبقة العاملة الفقيرة وهذه الطبقة دائماً أبدأ مهضومة الحقوق ، مهانة الكرامة يؤخذ منها كل غال وثمين ، ولا تعطى إلا كل مرتخص وخقير .

ومتى شعر أفراد هذه الطبقة بأنهم منهوون لا يقيم لهم مواطنوهم وزناً ولا يحسبون لهم حساباً ؛ انكمشوا هم بدورهم متأثرين بدافع خفى لا يلبث هذا الدافع أن يثير فى نفوس بعضهم الجانب الشاذ من غرائزهم فيواجه هذا الجانب صراعاً عنيفاً فى الملاممة بينه وبين تقاليد المجتمع الذى أبى أن يجعلهم على قدم المساواة مع مواطنيهم ، وهنا يحتمد فيهم الصراع النفسى فيظنون يوازنون ويفاضلون

متأثرين بعقليتهم المضطربة ونفوسهم المتزمنة ويجدون آخر الأمر أنهم لا يستطيعون التوفيق بين هذا الجزء الشاذ من غرائزهم وبين مجتمعهم الظالم ولا شك أن التفكير سينتهى بهم فى هذه الحالة القاسية إلى التحرر من كل شيء لأن الاعتداد بالشخصية من لوازم الإنسان المفكر الحر .

ومتى اضطرب اضطراباً إلى النفاذ فى الانسياق وراء هذا الجانب الشاذ من غريزته الذى يتأثر بالعاطفة أكثر مما يتأثر بالعقل والمنطق فإنه لن يجد له متسعاً للعمل إلا فى الظلام والخفاء .

وفى هذه المرحلة الارتجالية المتذبذبة تبدأ الدسائس تعمل عملها الخرب ، والوشايات تفعل فعلها الهدام ؛ ولا يستفيد من هذه التفرقة سوى الأجنبي حيث يجد الأبواب مفتوحة على مصراعها ليدخل منها من غير مشقة ، ليسعد بخيرات البلاد ونعيمها .

ومجتمع هذه حالته لا بد وأن يكون مصيره الانهيار فالزوال ومن ثم لن يجد من يأسف عليه أو يرثى لحاله لأنه أهل لهذا المصير المظلم والنهاية المحزنة .

وعلى عكس هذا ؛ المجتمع الحر القوى السعيد الذى لا تنقص أفراده الشجاعة الأدبية ولا يفتقرون إلى الضائير الحية والنفوس الانية ؛ أفراد يدركون المسؤولية تمام الإدراك ، ويميزون بين الحق والباطل ، والحرية والعبودية ويتعاونون مع جميع مواطنيهم فى توجيه مجتمعهم توجيهاً يتسم بالخير والفضيلة والمصلحة المشتركة . ويقضون على جميع التقاليد التى تتنافى مع الصفات الانسانية النبيلة ، والعادات التى تتعارض مع الطبايع البشرية الحميدة ، فينبذون الفوارق ويتقاسمون حلاوة الأفراح ومرارة الأحزان ، رائدهم فيما يعملون وجه العدالة والاخاء والمساواة .

فمسئولية المجتمع ضريبة واجبة ، إن لم يؤدها كل فرد على الوجه الأكمل الصحيح تعرض المجتمع للإفلاس المادى والأدبى .

يوسف محمد الشامي